قصة اندلسية

قصة بقلم زينب الأمير

ـ أرجو الا تكوني ايطالية .

ضغطت الزر الاول فهبط فنجان الورق المشمع

ـ أرجو الا تكوني ايطالية .

ادارت رأسها تستفسر عمن يوجه اليها الحديث

ـ أرجو الا تكوني ايطالية .

تبسمت لامر هذا الغريب يطلب شيئا تستطيع منحه بسهولة .

ضغطت زرا ثانيا فتساقط مسحوق البن الى الفنجان .

اقترب الصوت : ارجو الا تكوني ايطالية .

« كيف ينتظر منها هذا الغريب أن تحدثه بهذه السهولة ودون مقدمات ؟ »

ـ انت حتما لست ايطالية

ـ ولم لا تريدني ان اكون ايطالية ؟

ـ لتكوني اسبانية .

ـ يؤسفني الا استطيع تلبية طلبك .

ـ فمن اين لك هذه السمرة ؟

رفعت صوتها ليسمعها كل من في القاعة تقول بكبرياء : انا عربية

ـ اذن فانا عربي .

ملأها قوله اعتزازا . اسباني يعترف باصله العربي !! مدت اصبعا تريد ضغط زر الحليب . فمد الاسباني يده يوقفها :

ـ العرب يشربون قهوتهم سوداء .

كان يجلس على كرسي بجوار آلة تعد القهوة ، تقدمها بعد اسقاط قطعة نقود فيها ، وضغط ازرار مركبة عليها . فهناك زر ينزل فنجانا فارغا من الورق المشمع واخر ينزل مسحوق القهوة وثالث ينزل مسحوق الحليب ورابع لمسحوق السكر واخر ينزل الماء الساخن . وظيفة الاسباني اصلاح العطل اذا عصى احد الازرار واجبه ، او اعادة قطعة النقود الى صاحبها اذا طال العصيان ، ونادرا ما حدث هذا . ولكنه كلما رآها ساعة الفرصة اخبرها ان الالة على وشك ان تتعطل ، والافضل ان يضغط لها هو الازرار فينزل الفنجان ومسحوق القهوة والماء الساخن او يؤكد انه لن يضغط زر مسحوق الحليب او السكر ، فالعرب لا يشربون قهوتهم حلوة بيضاء كما يفعل من لا يتذوقها من اهل هذا البلد .

« غريب يكلمها فتجيبه ! لقد اجتازت المرحلة الاولى من الامتحان بنجاح . غريب يكلمها فتجيبه ولا تسأل ذكرياتها اذنا ولا تخشى مستقبلا مراقبا . ستعيش لحظات ايامها بلا ماض يشدها اليه ولا مستقبل تشده اليها » .

اما اقسمت لنفسها ان تعيش حالة سفر ! دون عودة الى ماض او استباق الى مستقبل ؟ انها اليوم تلميذة ، من هؤلاء الكثيرات والكثيرين الذين جاءوا ليتعلموا . جاء هؤلاء كلهم يتعلمون ، وستفعل مثلما يفعلون ، والمحادثة افضل طريقة لتعلم لغة جديدة كما اخبرهم الاستاذ في اول ساعة من ايام الدرس . لاجل هذا تحادث الاسباني . تبدأ التعلم بطريقته الصحيحة . كلهم جاءوا ليتعلموا وهي جاءت كذلك لتتعلم .. ستتعلم .. ستتعلم كيف تنسى . اليس تعلما ان تنسى ؟ بماذا تبدأ ؟ بالايام الحلوة البعيدة ام الايام المرة الموجعة ؟ اصحيح انها تريد ان تنسى ؟ كان الماضي من الفني بحيث يؤلم التفريط به ، وكان الماضي من الفني بحيث يجب نسيانه . ستدع الاسباني يحدثها عن اثار العرب . حديثه يطربها ويشبع غرورها الانثوي والقومي . انها هنا تلقى انتصارا دون ان تدفع خلجة واحدة ثمنا له . ما عليها الا ان تصغي في حاضر آني ، مقطوع عما قبله وما بعده .

وعرفت أنه ينتظر ساعة نزولها الى شرب القهوة . وفرحت لذلك واصبحت تنتظر تلك الساعة ثم تعود لتحاسب نفسها وتعاتبها وتقسو في العتاب ، فهي لن تسمح لهذا الغريب ان يرفع الكلفة بينهما الى هذا الحد .

وفي الغد كان ابن العم كما سمى نفسه يعود الى حديث الاندلس وتعود هي الى الاصغاء .

سألها يوما ان كانت تشم رائحة نتنة ، فنفت ذلك ، فقال انه يشمها ، وسيعين مصدرها ، فهي كل هؤلاء ذي الاصل غير العربي . العرب اول من انشأ الحمامات في الدنيا واسبانيا لا تزال مملوءة بها . تطلعت الى سراويله التي لم تر الماء منذ نسجها وقميصه الاسود الذي لم يبدله منذ تمنى الا تكون ايطالية ، فضحك وهو يرى نظرتها اليه :

ـ ان ما ترينه هو هيئتي الخارجية ، اما حقيقتي فنظيفة غسلها حمام عربي .

لا يهمها ان كان صادقا ، فطالما حاسبت الناس على كلامهم ، وفتشت عن الصدق فيه وصدقت ما كان غير صادق منه ، وتألمت حين وجدت نفسها تخدع نفسها . اليوم ستسمع الكلام العابر على انه عابر وستعيش ايامها بكل ما يتاح فيها من متع صغيرة غير واعدة . لن تفتح قلبها لجديد ، ان كان هناك مكان لجديد .

وتطوع الاسباني ان ينقل اليها اخبار العالم العربي صغرت ام كبرت ، وكانت تدري ان بعض تلك الاخبار لا يحتاج كل الحماسة والحدة التي يبديها ولكنها تطرب اذ تجد اسبانيا يعتز باخبار اجداده العرب وحين يطيل الكلام تنظر الى ساعتها فيبتر حديثه . هناك الكثير منه وهو متأكد انه سيتمه غدا وبعد غد وفي الايام الكثيرة التالية .

اثار تأكده دلالها العربي ، فلم تنزل لتشرب القهوة ، وتعمدت الجلوس في الصف تستنسخ درسا يمكن تأجيله اسابيع . صعد الاسباني . لم يبد قلقا او لهفة ولكنه جاء يسألها لم لم تنزل وقد رآها تدخل الصف ؟ هل ملت القهوة ؟ ام ملت حديثه ؟ واستطرد ضاحكا انها لا يمكن ان تمل صحبته فهو قريبها الوحيد في مدرسة الاجانب هذه . ثم حدق اليها وقال فجأة :

ـ حين نصبح عجوزين استطيع ان اتصور شكلي وشعري ابيض . اما انت فهل يمكن ان يشيب شعرك ، الاسود الطويل ؟

وفوجئت بتحول مجرى حديثه ، التحول الذي كانت تنتظره ولكنها عادت فتماسكت واجابت غير فاهمة مرامه :

ـ لا تسألني عن المستقبل ، لم آت هنا لاخطط له .

ـ هل كان شعرك جميلا هكذا حين كنت طفلة ؟

ـ تظن حديث الماضي اقرب الى قلبي من حديث المستقبل ؟ نعم انه كذلك بحيث لا اريد التفكير فيه ولا في ناسه . كم تحمسوا وكم

ضحكوا وكم خذلوا . وكم تحمست وخذلت معهم .

ـ في مدينتي الاندلسية ...

ـ نعم ماذا هناك ؟ حدثني عنها اليوم وغدا وبعد غد وفي كل يوم آت .

وعرفت منه انه لن يعود الى وطنه مباشرة ، وانه يتعلم الانكليزية ليستطيع التنقل بين بلدان اخرى . وحدثها عن مشاكلهم الاجتماعية والاقتصادية ، فكأنها تصغي الى عربي من بلدها يحدثها عن طموحه وآلامه وامانيه وعما يريد لوطنه حين يعود اليه .

قطع يوما حديثه ليعلن انه مسافر بعد عشرة ايام . رأت شرودا على وجهه فاجابته ضاحكة :

ـ سنلتقي في الاندلس .

ارتسم حزن على عينيه وخيبة امل فاكملت :

ـ انت نفسك تسميها الاندلس فلم ازعجتك هذه التسمية مني ؟

فازدادت مظاهر الحزن عليه وصمت .

كانت في حاجة حقيقية لاستنساخ مادة الدرس فمكثت في الصف فترة الفرصة ، وسمعت الاسباني يسألها ان تنزل لتشرب قهوتها . كان في صوته نبرة آمرة فقالت انها واثقة الان من اصله العربي ، ولكنه لم يبتسم واعاد قوله بلهجة صارمة فتبعته . وبدأ يعد لها القهوة ثم توقف . وظهرت عليه كآبة . قال انه كذب عليها امس فهو مسافر بعد غد . سألته :

ـ لم كذبت ؟

ـ قال : كي اخفف عليك التفكير في امر سفري .

وعجبت لقوله « ما اهمية ان يسافر هذا الاسباني اليوم او بعد سنة ؟ »

واستلفت نظرها منظر كرسيه الفارغ في اليوم التالي وانتظرته ان ينبع كعادته من بين الطلاب المزدحمين ولكنه لم يظهر . توقعت نداءه لها (ابنة عمي) ولكن الاجانب كانوا يحيطون بها . اقتربت من الالة والكرسي بعد فارغ . دفعها حشد من الطلاب الى الالة ولم يظهر ابن عمها . اسقطت قطعة النقود ، فكان قربها تلميذ ينتظر دوره ، فوجدت نفسها تسأله عن الاندلسي . اجاب : بانه سافر امس .

ـ ولكنه قال ان موعد سفره الغد . هل انت متأكد انه سافر ؟ أأنت متأكد ؟.

كان التلميذ قد ابتعد عنها . هل تسأل اخر ؟ الاخرون ينتظرون دورهم لاخذ قهوتهم . ضغطت الازرار والكرسي الفارغ يقول لها الف حديث . حملت فنجانها ومشت . رشفت منه رشفة فتذوقت طعما جديدا . مسحت عينيها فرأت قهوتها ممزوجة بالحليب .

عادت عيناها تمتلئان بالدموع ، وهي لا تدري اين تقودها قدماها ولا تدري ماذا تفعل . الذي تدريه انها ترجو الا تكون قد اضافت الى مخزن الماضي قصة اندلسية .

ديزي الامير

منشورات « دار الاداب »

تطلب في القاهرة

من

مكتبة مدبولي

٦ ميدان طلعت حرب

(سليمان باشا سابقا)

الكوز

.. وامد حبلا من رماد يدي ، يا مطر النسيم ،
الى يديك
لاحس في شفتي رعشة وجنتيك
لاحس وهجا في يديك
لمحا من الماضي ، حرارة خبز امي ،
وهج بسمتها الحنون
أو دفء قبلتها وهمس صلاتها في فجر عيد
ويدي تحس نداوة العشب الحصيد .
يا ملح اول دمعة كانت غمائم في عيوني
يا طعم اول قطرة من ثدي أمي في شفاهي .
دعني احسك كالعبير
كالدفء في وجنات طفل ..
.. كالنسيم يمر بعد ضحى مطير .
دعني احسك يا الهي
كحليب أمي في شفاهي .
يا رقدة فوق الحصير
والماء كالباور في كوز الفخار
وشجيرة اليقطين ، فوق السقف ، خضراء الثمار
والظل في البستان سري كما التف النعيم .
يا قطرة من نهرنا المنسي اطفأت الجحيم
يا قطرة من نهرنا المنسي ، يا مطر النسيم
اطفيء سرابا في شفاهي
اطفيء صحارى في الضمير .
يا قطرة من نهرنا المنسي ، يا خبز الكفاف .

امطر على شفتي يا كوز الفخار
واهبط على قلبي ، على قلبي ، على الارض البوار .

موسكو

حسب الشيخ جعفر